

البشارة بالمسيح

ولا زالت مريم تتعرف على كرامات الله لها ولطفه ورحمته بها حتى كلمتها الملائكة يوماً فأخبرتها باصطفاء الله تعالى وولايته لها.

قال جل ثناؤه وتعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٤٢) يَمْرَيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ. ﴿

[الأنعام: 42-43]

وفي إنجيل [لوقا 1: 28] «فدخل إليها الملاك وقال: «سلام لك أيتها المنعم عليها الرب معك مباركة أنت من النساء». وفي أحد الأيام أراد الله جلّ وعلا أن يوطأ نفس مريم للمهمة التي ستواجهها والبلاء الذي سيمر بها.

فبشرتها الملائكة بقول صريح أنها ستحمل بالمسيح، قال تعالى في الذكر الأعظم: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ

بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ [الْعَمَلَانِ: 45] فتعجبت مريم أيما تعجب، وتحيرت غاية التحير، كيف يكون لي ولد من غير والد وأنا لا زوج لي ولم يقربني رجل؟!

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الْعَمَلَانِ: 147]، وفي إنجيل [لوقا 1: 43] «فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً. قال الملاك لها: لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله.

أي أن الله على كل شيء قدير، غلب أمره، ونفذت مشيئته، وعمت قدرته، إذ أنه يخلقه بكلمة منه فيقول له: كن فيكون».

قال ابن كثير: «فخضعت مريم لأمر الله واستكانت وعلمت أن هذا فيه بلاءٌ عظيم لأن الناس سوف يتكلمون فيها بسببه

ويهتمونها في حمله»، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، إنما ينظرون لظاهر الحال من غير تعقل ولا امتثال⁽¹⁾.

ذكر ميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

وظلت مريم مُداومة على عبادة الله جلَّ وعلا لا تخرج من المسجد إلا في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها، من استسقاء ماء أو تحصيل غذاء.

فبينما هي يومًا قد خرجت لبعض شأنها وانتبذت مكانًا شرفيًا من قومها إذ بموعد الله تعالى يأتي وقدره النافذ يتم.

أرسل الله رب العالمين إليها الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [يُزَكِّي: 17]، أي شابًا كامل الخلق، سوي الهيئة، جميل المنظر⁽²⁾.

(1) (ابن كثير «قصص الأنبياء» ص [565] مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة)
(2) يؤمن الكاثوليك أن روح القدس الذي يعبدونه تمثل لمريم رجلًا وعاشرها معاشرًا جنسية ليكون المولود ابن إله حقًا.

فهابته مريم وخافته فتعوذت بالرحمن من أذى هذا الإنسان
فههي: العفيفة، الطاهرة، النقية، الحية لا تخالط الرجال ولا
تقتحم مجالسهم.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ [يُوحَا: 18]،
لأنها علمت أن التقى ذو نبيه، إذا ذُكِرَ ذكر، وإذا خُوفَ بالله خاف
وانتهى.

قيل: فلما سمع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ذِكْرَ الرحمن عاد فرقاً وخوفاً
إلى صورته الحقيقية وقال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ
غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [يُوحَا: 19]، فعلمت أنه موعد تحقيق البشارة
فسلمت الأمر لله جلَّ وعلا راضية مختارة، فنفخ جبريل في كم
درعها أو جيب قميصها فصارت النفخة في بدنها فحملت من
فورها كما تحمل المرأة من بعلها ليكون عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آية للناس
على قدرة بارئهم وعظمة خالقهم ومصورهم، فإنه تعالى خلق

آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى، فتمت القسمة الرباعية الدالة على القدرة الإلهية في خلق هذه البشرية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الْعَنْكَبُوتُ: 59].

وأيتها أعظم...؟!

أن يخلق الله بكلمته إنساناً من تراب بلا أب ولا أم حيث صفة التراب تخالف صفة الإنسان ظاهراً.

فالإنسان لحم ودم وعقل ومشاعر وحركة... إلخ.

والتراب جهادٌ ساكن مبعثر الذرات.

أهذا أعظم في الخلق أم إيجاد إنسان من إنسان آخر يماثله ولكن على غير الطريقة التي اعتادها البشر حيث أنه من أم بلا أب. ولهذا كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آية للناس عامة ولبنى إسرائيل خاصة على قدرة الله جلَّ وعلا⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مَرْيَمَ: 21].

قال ابن كثير: «ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق»، وفي [أشعيا عدد [14] إصحاح [7]]: «ولكن يعطيكم السيد لنفسه آية، ها العذراء تحبل وتلد ولداً وتدعوا اسمه عمانوئيل».

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: 22]، أي: مكاناً بعيداً نائياً مستتراً، لأنها بدأت تتفطن إلى الريبة التي سوف

(1) فخلق آدم وخلق حواء أعظم صورة من خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

تغامر قلوب الناس إذا رأوا معالم الحمل تظهر على عذراء لا زوج لها.

وغلب على مريم الحزن والأسى من هذا السرّ الرهيب الذي أغلق عليه في أحشائها، ومرت الأيام والشهور وحن الوقت لميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مَرْيَمَ: 23]، أي: ألجئها طلق النفاس، واضطرها ألم الوضع إلى جذع نخلة يابس لا حياة فيه بأرض قفر جدداء لا زرع فيها ولا ماء، فقالت وهي تعاني الآلام البدنية، وتعالج الهموم النفسية: ﴿ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾.

وفي هذه اللحظات الحاسمة، وهذا الكرب الشديد نزلت رحمت الله وانهمرت بركاته جلّ في علاه، لأن بعد الضيق فرجًا،

ومع العسر يسراً، والله تعالى لا يترك أوليائه هملاً بل يحفظهم برعايته ويغشاهم بعنايته.

فهاهي الآيات تتبدى، والمعجزات تظهر لتثبت مريم في محبتها وتربط على قلبها، فالجذع اليابس يصير بإذن الله نخلة شاذخة تثمر تمرًا طيبًا، ورطبًا جنياً، وإذ بالربوة الجدباء والأرض القفراء يجري الله على مشارفها نهراً عذباً طاهراً سرّياً.

وتأتي المعجزة الكبرى والآية العظمى، فبينما مريم على هذا الحال إذا بصوتٍ يناديها وشخص من تحتها يكلمها ويلاغيها فنظرت فإذا الجنين يتكلم، والصغير يتحدث كي تقرر عينها وتطمئن ولا تحزن⁽¹⁾.

﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْنُكَ سَرِيًّا ۚ وَهُزِّي إِلَيْكِ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ فكلّي

وَأَشْرَى وَقَرَى عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٤﴾ [يُوحْيَى: 24-26].

وكان الصيام في شرعيتهم عن الكلام كالصيام عن الطعام.
فأمرها به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن هو الذي يتكلم عنها ويدافع
لتظهر برائتها وتوضح حالتها.

فلما رأت مريم الآيات والمعجزات أخذت جنينها ﴿٢٥﴾ فَأَتَتْ
بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴿٢٦﴾ بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها بيديها، فلما
رآها قومها ﴿٢٧﴾ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٨﴾ أي شيئاً عظيماً
رهيباً كبيراً ﴿٢٩﴾ يَتَأَخَتَ هُرُونَ ﴿٣٠﴾ أي يا من تشابهين هارون العابد في
الزهد والعبادة⁽¹⁾.

(1) قيل: إنه كان له أخ اسمه هارون زاهد عابد، وقيل: إنهم قالوا لها هكذا لأنها من
سبط (قبيلة) هارون. وهذا حق.

﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ ﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ

من أهل الفحشاء ولا أمك ترتكب البغاء بل أنت من أسرة طيبة
طاهرة (1) .

فاتهموها بالفحشاء والفعلة الشنعاء .

قال ابن كثير: « فلما ضاق الحال، وانحصر المجال، وامتنع
المقال، عظم التوكل على ذي الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص
والاتكال (2) .

﴿ فَأَشَارَتْ ﴾ أي خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه، وما
تبغون من الكلام لديه، فعندها ﴿ قَالُوا ﴾ ﴿ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ جَبَّارًا
شَقِيًّا ﴾ ﴿ كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أي كيف تحيلينا في
الجواب إلى صبي صغير لا يعقل الخطاب وهو مع ذلك رضيع

(1) ابن كثير «قصص الأنبياء» .

(2) ابن كثير «قصص الأنبياء» .

في مهده لا يفرق بين محض وزبده، وما هذا منك إلا على سبيل
التهكم بنا والاستهزاء والنقص لنا والازدراء إذ لا ترددين علينا
قولاً نطقياً بل تحيلنا في الجواب على من كان في المهد صبيّاً.

فيا ترى بأي شيء نطق عيسى في مهده؟! وماذا قال إذ خاطب
وهو جنين قومه؟

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فكان أول ما
نطق به الاعتراف لله تعالى بالعبودية.

وإنه لا فرق بينه وبين سائر البشرية، ولا يُفضل عليهم
إلا بالنبوة والرسالة؛ إذ أعطاه الله الإنجيل وجعله نبياً لبني
إسرائيل⁽¹⁾.

[يوحنا 17 : 30] «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت
الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته».

(1) يوحنا (20 : 17) قال المسيح: «أبي وأبيكم إلهي وإلهكم» يفسر لهم معني أبي
أنها تعني إلهي، ويقدم نفسه عليهم في العبودية لله تعالى.

[يوحنا 4 : 34] «قال لهم يسوع طعماني أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله».

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلِكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ هذه هي حقيقة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في التوراة والإنجيل والقرآن ليس كما قالت الأمة الغضبية أنه ابن زانية، لأنه رسول كريم، ولا كما زعمت الطائفة النصرانية أنه ولد لله تعالى - تعالى الله عن ذلك -.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ على الفور والحال من غير تأخير ولا امتهال كما أراد ودبر الكبير المتعال.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خلق بكلمة الله كن فكان، وعلى الهيئة التي أراد الله جلَّ وعلا، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله

ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأن الجنة حق، والنار حق أدخله الجنة من أي أبوابها شاء»⁽¹⁾.

وفي رواية: «أدخله الجنة على ما كان من العمل»، فالله جلّ وعلا إذا قضى أن يخلق شيئاً فبكلمة كن ونسب عيسى إليها لأنه خلق بها من غير تناسل، وأضيفت إلى الله تعالى تشریفاً وتكريماً كما هو واضح فيما جاء في [المزمور 23] عدد [6] «بكلمة الرب صُنِعَتِ السموات وبنسمة فيه كل جنودها»⁽²⁾.

[عدد 9] [مزمور 23] «لأنه قال فكان هو أمر فصار».

وفي [لوقا إصحاح 1] عدد (1-2) «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة».

[يوحنا 8: 40] «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته

من الله».

(1) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت.

(2) كتاب «سيدنا عيسى بشر رسول».